

مجلة مقابسات في اللغة و الأدب - جامعة يحيى فارس - المدينة			
المجلد: 03	العدد: 01	ديسمبر : 2022	ص: 25 - 56

البعد الانساني للمكان في الرحلة العربية المغاربية

The human dimension of place in the Maghreb Arab journey		
د.محمد سرير		
جامعة يحيى فارس - المدينة		
serirmohamed_2017@yahoo.com		
تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2022 / 12 / 28	2022 / 12 / 04	2022 / 12 / 02

الملخص:

قام الرحالة العربي بعدة رحلات من بينها رحلة الحجازية ورحلا لبلاد الهند والسند، والتي حاول فيها الجمع بين ماضيها وحاضرها، فقد انعكست صورته على كل النواحي الانسانية والاجتماعية والدينية، فقد وصف العمران والمدن وأهم العادات والتقاليد، كما ذكر الجنس البشري وحاول دراسة تركيبته النفسية والدينية، كما لم يفته تحليل العلاقات الاجتماعية.

من الركائز الأساسية لأي مجتمع نجد البعد الانساني الذي أولاه الرحالة اهتماما كبيرا فذكر أهم الأعمال المتمثلة في العبادات المختلفة، كما ذكر حالة المجتمع وعرف عمرانهم وبلدانهم.

المؤلف المرسل: د.محمد سرير	serirmohamed_2017@yahoo.com
----------------------------	--

الكلمات المفتاحية: الرحلة، المجتمع، الخطاب، الصورة، الدين.

Summary:

The Arab traveler made several trips, including the Hijaziya trip and a trip to the countries of India and Sindh, in which he tried to combine its past and present. His image was reflected in all human, social and religious aspects. He described urbanization and cities and the most important customs and traditions. Nor did he miss the analysis of social relations.

Among the basic pillars of any society, we find the human dimension, which the travelers paid great attention to, so he mentioned the most important actions represented in the various acts of worship, as he mentioned the state of society and defined their settlements and countries.

Keywords: journey, society, discourse, image, religion

*** **

مقدمة:

منذ وجد الانسان وفي نفسه الرغبة الملحة في التنقل والارتحال لأن الله عز وجل خلق فيه الفطرة التي تدفعه إلى البحث والتأمل في مخلوقاته، ولسد هذه الرغبة والإجابة عن هذه التساؤلات عليه القيام بالرحلات التي تقوده إلى أماكن مختلفة يكتشف فيها عظمة قدرة وبديع صنع الخالق، ليطمئن قلبه ويزداد لديه اليقين.

فالرحلة هي سفر في فضاءات وأمكنة مختلفة، ووصف مباشر لما يترأى للعين، تجمع بين طياتها عدة معطيات، يستفيد

منها جلّ الباحثين من مؤرخين وجغرافيين وحتى الأدبيين، لأنها تدون المشاهد الحية وتعمل على التصوير المباشر، مما يجعل قراءتها غنية، وممتعة ومسلية، فعدد كبير من الروايات والقصص يمكن أن يندرج بصورة ما تحت مسمى أدب الرحلات وهو من أقدم أنواع الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلته، التي قام بها لأحد البلدان أو مجموعة منها، وتعد كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والأدبية.

من طرح الاشكالية الآتية كيف تمثل البعد الانساني للمكان في الرحلة المغاربية؟

وللإجابة عن هذا السؤال حاولنا دراسته في رحلتين مغربيتين، هما رحلة كل من ابن بطوطة والحسين ابن محمد الورتلاني.

1- البعد الديني:

يحتل البعد المكاني في المتن الرحلي مكانة واسعة، ونستطيع القول إن المكان في الرحلة هو الحجر الأساس، فالرحلة يمارس فعل الارتحال وسط المكان الذي نراه يكتسب صوراً مختلفة تتعدد وتتنوع حسب حس الرحالة وواقع السرد، ((يكسب المكان وجوداً من خلال أبعاده الهندسية والوظيفية التي يقوم بها،

فإذا كانت الفضاءات المفتوحة امتدادا للفضاء الكوني الطبيعي مع تغيير حاجة الإنسان المرتبطة بعصره، فإن الحاجة ذاتها تربط الإنسان بفضاءات أخرى يسكن بعضها ويستخدم بعضها في مآرب متنوعة، فالبيت مسكنه يحميه من الطبيعة والمستشفى مكان للعلاج، السجن قد يسلبه حوريته، والمسجد فضاء للعبادة، هذه الأمكنة ينتقل بينها الإنسان ويشكلها حسب أفكاره والشكل الهندسي الذي يروقه وتناسب تطور عصره، وينهض الفضاء المغلق كنقيض للفضاء المفتوح¹، نجد من يقسم المكان إلى مغلق ومفتوح وهذا يعود إلى الحالة النفسية التي يرومها الكاتب، فقد يقصد بالمكان المغلق البحر وهو فسيح لكن حالته النفسية تراه يبصر البحر على أنه مكان للحنن تضيق الحال، بينما يرى في الغرفة الصغيرة مكانا للراحة والهدوء بل مكانا للابداع والابتكار، وكثيرا ما نجد الرحالة يعمل على وصف مكان فسيح بصور ومشاهد مخيفة تجعل القارئ يحس بضيق فيها، كوصفه للصحراء وما يصاحبها من خوف وتيه وقساوة العيش، فهي مكان حتمي للموت، كما أنها قد تكون مكانا للبهجة والسرور، وهذا كله يعود لطبيعة السرد ونفسية السارد.

ومن أهم الأماكن التي ذكرها الورثلاني في رحلته نجد :

1. المساجد : وهي أماكن لأداء فريضة العبادة ((هو فضاء يساهم في بناء الرواية ويشكل إلى جانب الأماكن الأخرى بناء المكان العام للخطاب، يفتح على الناس كمكان للعبادة، يجتمعون فيه لأداء الفريضة والتزود من أجل مواجهة ظروف الحياة الصعبة يذهبون إليه في حركة متكررة خمس مرات في اليوم ، يتفاهم إلزام قابع عن إيمانهم وارتباطهم بربهم، يأتونه تقودهم رغبة روحية))² ذكر الرحالة العديد منها وهذا راجع إلى طبيعة الرحلة كونها رحلة حجازية غرضها ديني، من ضمن هذه المساجد نذكر مسجد العشيرة يقول ((ومثل العشيرة معروفا ببطن الينبع وهو مسجد القرية ... وقد دخلنا هذا المسجد وقلنا فيه حتى صلينا الظهر والعصر))³ هو مسجد في القرية دخله الرحالة لأخذ قسط من الراحة والصلاة .

مسجد الجامع الأكبر ((الواسع بالبنيان الشامخ فلم يوجد فيما علمت أحسن منه ولا افتح ولا أوسع ولا أعظم في المساجد المعلومة))⁴ أعجب الرحالة بهذا الجامع وهندسته المعمارية إذ صنف من أعظم وأوسع المساجد .

مسجد الغمامة ((وزرنا أيضا المسجد المسمى بمسجد الغمامة وهو موضع العريش يوم الوقعة ببدر))⁵ لم يذكر الرحالة هذا المسجد بميزة خاصة أو وصف معين.

الجامع الأعظم ببسكرة ((لا نظير له وصومعته ما أحسنها وما أوسعها))⁶ نلمس أسلوب التعجب الذي قلما يفارق الرحالة، فهو مقبل على مكان يجهله ولا يملك خبراً عنه، وإن كان سمع عنه لكنه لم يتحقق من ذلك بالمشاهدة المباشرة، لذا نراه يصف الجامع الأعظم في بسكرة، حيث كان لصومعته وهندستها المعمارية النصيب الأكبر من الإعجاب.

مسجد السلطان حسن ((ومسجد لا ثاني له في مصر ولا غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهته وارتفاعه وإحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة ...))⁷، يتواصل أسلوب الإعجاب الرامي إلى الإشادة بالعمران المصري الإسلامي، وهي تعبير عن ثقافة الآخر التي نجد الرحالة يميل إليها ويتفنن في نقل الخبر إلى القارئ.

عادات في المسجد:

طواف المؤذن على دور جيران مسجده:

أعجب ابن بطوطة بأخلاق أهل خوارزم وكرمهم ورأى عندهم عادة وصفها بالجميلة لم يرها عند غيرهم يقول "ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم، وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور

الصلاة⁽⁸⁾ وهذه العادة تظهر حرصهم وتعظيمهم للصلاة، ومن تخلف عن الصلاة ضربه الإمام أمام الجماعة، ومن خلال هذا العقاب يصبح المصلين حريصين على الصلاة في المسجد ومع الجماعة، كما يوجه حكما جماليا على العادة وهو حكم نابع من مرجعيته الإسلامية.

2. البيت : زار العديد من بيوت العلماء والفقهاء، بالإضافة إلى ذلك بيت النبي عليه الصلاة والسلام وبيت الصحابة، كما يعتبر البيت ((واحد من أهم العوامل التي تدمج الأفكار وذكريات وأحلام الإنسانية ، وومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة، حيث يمنح الماضي والحاضر والمستقبل لهذا يشكل البيت ديناميكية مختلفة كثيرا ما تتداخل أو تتعارض لهذا بدونه يصبح الإنسان مفتتا وكئيبا لأنه فضاء مكاني هام في حياته)).⁹

يشكل البيت علاقة وطيدة بالإنسان الذي يسكنه إذ أنه عالمه وموطنه الأول، وهو مملكته التي يمارس فيها حياته ووجوده بوصفه مكانا خاصا، فإنه يعني في الغالب مزيدا من الأمان والطمأنينة والحرية.

ومن ضمن البيوت التي ذكرها الورثلاني نذكر بيت سيدي إبراهيم الخليل ((وزرنا ذلك أنعام الأفاضل ودخلنا بيت سيدي إبراهيم الخليل مع أولاد الشيخ السيد الغوث...))¹⁰.

وكذلك بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والبيت الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرها، ولا يسعنا أن نذكرها كلها لأنها كثيرة، لأن الرحلة كانت طويلة تعرف من خلالها الرحالة العديد من الناس ودخل بيوت العديد منهم .

3. **القبور** : من القبور التي وردت في الرحلة قبر حليلة السعدية ((لم أر أحدا ذكر أنها ولدت بالبقيع والله تعالى أعلم على كل حال))¹¹ استتكر الرحالة الخبر القائل أن حليلة السعدية رضي الله عنها أنها مدفونة بالبقيع لكنه زار قبرها الذي يزعم أنه لها، يستعمل الرحالة أسلوب الشك تاركا للقارئ مساحة للكلام وللحكم، فهو رحالة ناقل للخبر كما هو، مع ابداء الرأي وحمله على مبدأ الشك.

قبر سيدي عقبة ((ثم دخلنا لزيارته مع جملة وافرة من أصحابنا اصفرارا وقبره بالبسيط الذي تحت جبل الأوراس الذي قتل به، وهو مشهور بزار وعليه مسجد عجيب وقرية عجيبة))¹² عرج الورثلاني رفقة أصحابه على قبر سيدي عقبة وزار المسجد المبني عليه والقرية المجاورة له.

قبر السيدة ميمونة رضي الله عنها)) وعلى قبرها بناء ومسجد فزرنها خارج البناء معظمين لرحمتها راجين حسن بركتها))¹³ كان العرب قديما يتبركون بمقابر الأولياء الصالحين ولا تزال هذه العادة إلى يومنا هذا عند بعض القبائل والورثاني ومن معه تبركوا بقبر السيدة ميمونة، فالرحالة يعكس الثقافة الدينية التي يتمتع بها المسلم، وهذا من الطقوس التي يمارسها الزائر للقبر الذي يحوي جسد صاحبي أو نبي أو رجلا صالحا.

2- البعد الجغرافي:

4. الوديان : هي من الأماكن التي رآها الرحالة وقد مر بها وعرف ما لها من مميزات جغرافية وفوائد زراعية لذا نراها تطعم السرد الرحلي وتثري معارف القراء. ومن ضمن الأودية التي ذكرت في الرحلة:

● **واد العتيق** : يقول عنه " هو من المواضع المباركة التي ينبغي زيارتها " ¹⁴ هو واد يقع في المدينة المنورة، ويعتبر الممول الأول للزراعة بالمنطقة، وقد بنى الكثير من الصحابة بنيانهم بجانب الواد، وقد باركه الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن أراد البركة عليه بزيارة وادي العتيق حسب الورثاني، الذي استقى هذا من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

● وادي فاطمة ووادي الشريف: "وهو واد كبير فيه قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون تجري" ¹⁵ أعجب الورثلاني بكل هذا الواد والبساتين المحيطة به جعلت منه لوحة طبيعية جميلة، وعرف أيضا بواد مر الظهران.

● وادي الأراك: "هو واد واسع يأتي من ناحية الشمال والبحر عن يمينه قريب منه وفيه الكثير من شجر الأراك الأخضر الناعم" ¹⁶ الورثلاني دقيق في وصفه فهو ينتقل بالقارئ من مكانه في المكان الذي يصفه فقد جعلنا نكون صورة ذهنية عن وادي الأراك الذي سمي هكذا نسبة إلى أشجار الأراك المحيطة به.

● وادي الأكره: "هو وادي كبير تأتيه سيول من البلاد البعيدة". ¹⁷ المعروف عن الأودية أن مياهها تأتيها من الجبال أو البحار مثل وادي الأكره تأتيه السيول من مناطق بعيدة، وهذا النوع من الأمكنة موجود بكثرة في الرحلة، وسنتبين ذلك من خلال دراسة أهم الأماكن في الرحلة الورثلانية وأول ما نبدأ به:

● المدينة: "المدينة هي البيئة التي يترعرع فيها الإنسان، فهي مسكنه الطبيعي الذي يقيم فيه" ¹⁸ فكل مدينة كان يدخلها الرحالة إلا ويلتقي بسكانها وأمرائها.

كمدينة بسكرة " مدينة بسكرة مدينة كبيرة وكثيرة النخول ...
فيها آبار كثيرة عذبة"¹⁹ أعجب الورثلاني بهذه المدينة وما تحتويه
من خيرات ربانية .

مدينة الحوراء " نزلنا الحوراء بعد المغرب وتفرق الناس في
مياهاها وهي على حصائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير
وفيه ملححة كثيرة "²⁰ هي مدينة ساحلية احتضنت الرحالة ليوم
واحد أعجب ببحرها.

مدينة زواغة " وكانت مدينة عظيمة وهي أصل طرابلس "²¹
زارها الرحالة عند مروره بطرابلس وهي من حيث أصولها تقع
في ليبيا .

مدينة شروين : " مدينة كبيرة أهلة جليلة وبين طرابلس
ومدينة شروين خمسة أيام وبينهما حصن ... "²² تقع هذه الأخيرة
في ليبيا أيضا غير بعيدة عن طرابلس العاصمة.

مدينه توزر : " هي بلدة عظيمة من قواعد الجريد كثيرة
النخل مع جودة ثمرها إذ لا نظير له في سائر البلد "²³ كانت هي
الأخرى من المدن الكبيرة التي استوقفت الورثلاني بجمالها فراح
يصفها مبرزاً خيراتها وجودة ثمارها.

● القرى: تعد القرى من أكثر أسماء الأمكنة العربية
التي تشير إلى معنى الحياة وحريتها الدائمة لأنه مكان عام يمنح

الناس ((حرية الفعل وإمكانية التنقل وبغية الاطلاع والتبادل))²⁴ هذا يعني أنها مكان منفتح على العالم الخارجي وتعيش دوما حركة مستمرة تجعلها مكان انتقال تؤدي وظيفة مهمة في سبيل الناس لقضاء حوائجهم، لقد زارا الورتلاني في رحلته قرى متعددة نذكر منها :

قرية زمورة : في قوله ((وزمورة كثيرة المياه وأرضها ذات زرع وضرع ...))²⁵ ركز في وصفه (الرحالة) للمدن أو القرى التي يزورها على الجانب الجمالي والخيرات التي تزخر بها المدن أو القرى فزمورة يرى أنها كثيرة المياه ما يجعلها أرض زراعية.

قرية الحامة يقول عنها " فيها نخل كثير ومياه عظيمه طيبة"²⁶ قال فيها ما قاله عن زمورة أرض كثيرة النخل والمياه، يحاول الرحالة عكس الصورة المباشرة التي يراها، مركزا على الأشياء الواضحة والتي يرى أنها تهم القارئ، كما أنها تعد من ركائز الحياة.

قرية عرام يقول فيها " نزلنا قرية عرام بعد أن زرنا ما فيها من قبور صلحائها "²⁷ تحوي العديد من الأضرحة، التي يرى الرحالة واجب زيارة أمر لا بد منه، فيه إقرار بخير الصحبة لهم،

وإقرار بحسن سيرتهم لأجل اتباع خطاهم والسير على دربهم،
والورثاني زارهم جميعا ثم أخذ قسطا من الراحة بهذه القرية.

قرية بدر " ونزلنا بدرا بعد المغرب وهي قرية حسنة ذات
نخيل وماء عذب فيها بركة كبيرة تكفي الأركاب كلها " ²⁸ قرية
بدر هي القرية التي وقعت فيها غزوة بدر ما جعلها قرية مباركة
طيبة بها من الخيرات ما يكفي القوم وضيوهم.

قرية رابغ " ورابغ قرية فيها نخيل وأبار كثيرة في واد يؤثر
إليه السيل من بعيد وتزرع فيه مفاتره كثيرة " ²⁹ هي الأخرى أيضا
من القرى المباركة .

● البلدان : الرحلة كانت مليئة بالبلدان لأن طريق
الرحلة كانت برا كما كان السفر ذلك العهد من الجزائر إلى
مكة.

ليبيا : " في مدينة طرابلس سور ضخم جليل البناء وهو على
شاطئ البحر ، وبها أسواق حافلة وحمامات كثيرة فاضلة وفيها
رباطات كثيرة ، يأوي إليها الصالحون " ³⁰ طرابلس هي عاصمة
ليبيا مر بها أثناء رحلته وأعجب كثيرا بطريقة هندستها المعمارية .
مصر : "ودخلنا القاهرة عند الضحى الأعلى مارين على
منزل الركب المغربي" ³¹ القاهرة هي عاصمة مصر وصل الركب

إليها عند الضحى وقد أعجب الورثلاني ذلك كثيرا بمدينة القاهرة وأسواقها العامرة .

مكة المكرمة : " قد دخلنا مكة فلم تغادر في النفس راحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلنا في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض العلم"³² شعر الرحالة بالغبطة الشديدة عند وصوله مكة المكرمة أرض الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه صالحين حيث كاد يفارق الحياة من شدة الفرح، حال دون ذلك جوها (مكة) الإيماني الذي قوى العزيمة والإيمان في نفوسهم.

المدينة المنورة: " أشرفنا على المدينة المشرفة على سكانها أفضل الصلاة والسلام غشينا نورا عظيما وبهاء قويا لا يخفى عن أهل الذوق"³³ تحمل المدينة المنورة قيما روحية ومشاعر دينية زادت من جمال المكان.

البعد الاجتماعي:

أ. عادة أهل مقدشو:

ومن عوائد أهل هذه المدينة هي أنه عند وصول التجار بالمراكب تتوجه مجموعة من الشباب إليهم في قوارب صغيرة

يحمل كل واحد منهم أكلاً يعطيه للتاجر ويتوجه هذا الأخير مع نزيله ويكون من هؤلاء الشبان، فيبيع له ما عنده ويشتري منه، والبيع مردود عندهم ولهم منفعة به حين يشتري منه ببخص أو يبيع منه بغير حضور نزيله.⁽³⁴⁾

ب. عادة أهل مدينة منلوي مع الفقراء:

تعتبر هذه العادة عادة إجتماعية كون أنها تمس الطبقات الاجتماعية تواجدت في مدينة من مدن مصر المعروفة بمنلوي.

وعادة هذه المدينة هي السماح للفقراء بدخول معصرة السكر وطرح الخبزة الحارة في قدر السكر المطبوخ ويتمتع بالقطعة المملوءة سكرًا، حقًا هي عادة كريمة ذات طابع اجتماعي نبيل لأنها لبث رغبة الفقراء في أكل طعام الأغنياء دون مقابل.⁽³⁵⁾

ج. لبس المظلومين ثوب مصبوغ:

السلطان شمس الدين للمش هو أول من ولي الملك بمدينة دهلي، وملك عرف بالصلاح والعدل يقول الرحالة ابن بطوطة عنه "أنه اشتد في رد المظالم وانصاف المظلومين وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبًا مصبوغًا وأهل الهند جميعًا يلبسون البياض فكان متى

قعد الناس أو ركب فرأى أحد عليه ثوبًا مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه من من ظلمه" (36)

فكان الملك شمس الدين للمش إذا رأى أحدًا عليه ثوب مصبوغ سعى إلى إنصافه ونصرته. ومن حرصه أنه قال هناك من الناس من تجري عليه المظالم بالليل فجعل على قصره أسدين ووضع في عنقهما سلسلة من الحديد عليها جرس فمتى سمع الجرس بالليل نظر في أمر المظلوم في الحين، وهذا ما يؤكد لنا حرص هذا الملك وتفانيه في إقامة العدل وسعيه لنصرة المظلومين.

د. عادة أهل مدينة العاليا:

تميز أهل مدينة العاليا بحسن الخلق والخلق والنظافة والأكل الطيب، وقد صرّح الرحالة في سرده أنه عند دخولهم تلك المدينة والنزل بها يتفقد أحوالهم من النساء والرجال وعند سفرهم تحزن النساء وتشرع في البكاء.

وعادتهم أنه يأتي لهم الرجال بالخبز الحار التي تخبزه النساء في يوم واحد من الجمعة، ومعه الإدام الطيب، ويطلبون منهم الدعاء تلبية لطلب النساء، كما أن أهل هذه المدينة يأكلون الحشيش ولا يخلون من ذلك". (37)

إن هذه العادة تبين لنا مدى كرم مدينة العاليا وطيبتهم لقد أعجبت بها كثيرا خاصته عند منح الرحالة لها وتصريحه بأنها مدينة حسنة ذلك أهل راقي وكريم خاصة كون أنهم مسلمين.

ه. عادة توزيع الطّعام:

تعتبر هذه العادة اجتماعية، في مدينة إيذج، وبهذه الأخيرة منازل في كل منزل منها زاوية يسمونها بالمدرسة، فإذا وصل المسافر إلى مدرسة منها أتى بالطعام له ولدايته، وعادتهم أن يعطي خادم المدرسة كل واحد من المسافرين قومين من الخبز واللحم والحلوى، وكل هذا من عند السلطان أحمد أتابك ومصطلح (أتابك) عندهم سمة لجمع من يلي تلك البلاد من ملك".⁽³⁸⁾

إنّها حقاً لعادة خيرية تُسوي كل طبقات المجتمع، وأن هذا السلطان لا يرضى أن يبیت زواره بالجوع والعطش وكل هذا دليل على كرمه وحسن ضيافته.

ورأى الرحالة ابن بطوطة على أنّ هذه عادة نبيلة سادت في تلك المدينة من سلطان كريم.

و. يغسلون رؤوسهم باللبن:

في سفر ابن بطوطة لمدينة ترمذ وجد أهلها يغسلون رؤوسهم باللبن عوض الطفل يقول "ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة فإذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في إناء صغير فغسل رأسه ويرطب الشعر ويصقله"⁽³⁹⁾، عند أهل ترمذ يعتبر اللبن مرطب للشعر ومجملاً له، ويتضح أنّ هذا الأمر غريب وذلك لأنه مخالف لتقافته الاجتماعية، فهو غير مألوف له.

ز. تأجير النساء أنفسهم للخدمة:

نساء جزائر ذبية المهل يؤجرن أنفسهن للخدمة مقابل عدد معلوم من الدنانير، ويجب كذلك على المستأجر أن ينفق عليهن ولقد نقل لنا الرحالة أنه رأى النساء في هذه العادة "ولا يرين ذلك عيباً ويفعله أكثر بناتهن فتجد في دار الانسان الغني منهن العشرة والعشرين"⁽⁴⁰⁾، وإذا كسرت النسوة أي شيء في منزل مستأجرهن دفعت قيمة الشيء الذي كسر وأكثر شغلهم هو عزل القنبر، وهذا يظهر لنا الظلم والذل وقساوة الحياة والعبء الثقيل الذي تتحمله نساء هذه الجزيرة، ولقد نظر الرحالة إلى هذا الأمر على أنه عجيب وغير مقبول ولم يره من قبل.

ط. يمشون حفاة الأقدام:

أهل جزائر ذيبة المهل لا يلبسون الأحذية وهذا الأمر يطبق على الجميع لا فرق بين غني وفقير، يقول الرحالة في ذلك "جميعهم حفاة الأقدام من رفيع، وأزقتهم مكنوسة نقية، تظللها الأشجار. فالماشي بها كأنه في بستان".⁽⁴¹⁾ وسبب المشي حفاة الأقدام شوارعهم نظيفة لأنهم يكنسونها وينظفونها من الأوساخ، وعند دخولهم إلى ديارهم أو إلى المسجد وجب عليهم غسل أرجلهم ويمسحوها بحصير غليظ من الليف، وهذا يظهر لنا أنّ أهل الجزائر أهل نظافة وطهارة، ولقد أعجب الرحالة بهذه العادة رغم كل ما شاهده من عادات سيئة لم يتقبلها عند أهل جزائر ذيبة المهل.

ي. الغسل أكثر من مرتين في اليوم:

بجزائر ذيبة المهل شاهد الرحالة ابن بطوطة عادة لم يألّفها من قبل عند أهل هذه الجزائر بقول: "وهو أهل نظافة وتنزه من الأقدار، وأكثرهم يغسلون مرتين في اليوم"⁽⁴²⁾ غسلهم مرتين في اليوم هو شدة الحر بتلك الجزائر الذي جعلهم يتصبّبون عرقاً، وهذا ما جعل أغليبيتهم يغتسلون مرتين في اليوم وهذا يظهر لنا حبهم للنظافة والطهارة، ولقد نظر الرحالة إلى هذا الأمر على أنّه مألوف وأعجب به.

ك. عادة إرجاع كل الأحكام إلى القاضي:

وأهل هذه الجزائر يعظمون القاضي وأمر كأمر السلطان ولقد قال الرحالة في ذلك "وسيمون القاضي فندريار وأحكامهم كلها راجعة إلى القاضي، وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين، وأمره كأمر السلطان وأشد، ويجلس على بساط في الدار وله ثلاث جزائر، يأخذ مجباها نفسه"⁽⁴³⁾ وهذا يدل على حب وتقدير القاضي الذي يسهر على نشر العدل والأمن.

ل. عادة خروج الكنادر لاستقبال المركب:

من عوائد أهل جزائر ذبية المهل خروجهم بالكنادر لاستقبال المركب والكنادر هي المراكب الصغيرة مفردها كندرة، وأصحاب هذه الكنادر هم أهل الجزيرة الذين يخرجون للترحيب بالمراكب مع الضيافة ولقد صور لنا الرحالة طريقة استقبال أهل الجزيرة للمراكب حيث يخرجون "ومعهم التبول أو الكرنية، وهي جوز النارجيل الأخضر، فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب".⁽⁴⁴⁾

والشخص الذي يعطي من هذا الطعام من أهل المركب يكون نزيلا عند الإنسان الذي أعطاه الضيافة من أهل الجزيرة ويحمل أمتعته إلى داره، وهذا إذا دل على شيء يدل على حب وكرم أهل

الجزيرة للغرباء وكرمهم، ولقد نظر الرحالة إلى هذه العادة نظرة إعجاب وتقدير.

م. عادة أهل مدينة الجلة:

شعب المدينة ينقسم إلى طائفتين، الأكراد والجامعين وكلاهما ينتمي إلى إمامين اثنا عشرية، تعاني هذه المدينة من الفتنة والقتال بين الطائفتين بها مسجد على بابه ستر حرير مسدول يسمونه مشهد صاحب الزمان.

وعاداتهم هي خروج مائة رجل مسلح كل ليلة والتوجه إلى أمير المدينة وأخذ دابة من عنده يضربون الطبول والبوقات أمامها ويتوزعون حولها وهم ما شين حتى الوصول إلى مشهد صاحب الزمان يتوقفون أمام الباب، يطلبون من صاحب الزمان الخروج بسبب ظهور الفساد وكثرة الظلم، ويبقون على تلك الحال حتى صلاة المغرب.⁽⁴⁵⁾ أن هذه العادة ذات أبعاد خيالية لا تمت للحقيقة بأية صلة، وحرقة أهل المدينة على كثرة الظلم والفتن والفساد عندهم ما دفع بهم إلى فعل تلك الأمور.

3- البعد الديني:

هي كل ما ينتقل إلينا من عادات وتقاليد مقتبسة من القرآن والسنة النبوية، ظهر هذا النوع بشكل كبير في كتاب ابن بطوطة لأنه قام بزيارة بلدان مسلمة كثيرة كان لها أبعاد إسلامية ودينية واقتباسات وتأثرت بالدين، محافظين عليها موروثة من جيل لآخر، تُخلد الإسلام وتُبقّيه في الأذهان.

أ. عادة نساء مدينة شيراز:

"اعتادت نساء مدينة شيراز على الخروج كل يوم اثنين وخميس وجمعة إلى المسجد العتيق لسماع المواعظ بلباس محتشم يتكون من الخفاف والبرقع في وجه كل واحدة منهن، وعند وصولهن إلى المكان المقصود تجلس كل امرأة بجوار الثانية، بأيديهن المراوح يستعملنها من شدة الحر، حيث بلغ عددهن حوالي الألفين" (46)، تبين لنا هذه المدينة أنها أعطت المرأة حقها في التعلم شريطة الخروج بلباس محتشم.

ب. عادة تشجيع الناس المكوث بالزوايا،

ظهرت هذه العادة في مصر وتمثلت في إشباع رغبة الفقراء بما يشتهونه من طعام فقد كان خديم الزاوية يأتي إليهم صباحاً ويعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام، وعند اجتماعهم للأكل

جعلوا لكل واحد خبز ومرق في إناء وحدد مرتان في اليوم، مع راتب شهري مقداره ثلاثين درهماً، كسوة الصيف وكسوة الشتاء بالإضافة إلى أنّ لهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة والصابون لتنظيف الملابس مع الزيت للاستصباح كل هذا بالنسبة للأعزب، أما المتزوجين فلهم زوايا على حدة يشترط عليه أداء فريضة الصلوات الخمس مع الميت بالزاوية". (47)

تنافس الأمراء في مصر على بناء الزوايا وصنعوا هذه العادة المميزة فهي دليل على الرغبة في انتشار العلم والثقافات وعلوم الفقه زيادة على هذا تشجيع الناس على التمسك بعقيدتهم الإسلامية، نظر الرحالة إلى هذه العادة على أنّها عجيبة إلى أنّه استحسنها.

ج. تقديس البقر:

الهنود لا يجيزون ذبح البقر يقول ابن بطوطة "من ذبحها عندهم أن يخاط في جلدها ويحرق، وهم يعظمون البقرة ويشربون

أبوالها للبركة، وللإستشفاء إذا مرضوا، ويلطخون حيطانهم بأوراثها"،⁽⁴⁸⁾ لقد تعجب الرحالة من تعظيم الهنود للبقر ونجد الكاتبة أمينة السعيد تقولك "وتقوم الديانة الهندوسية أصلا على عباد الروح، وتقديسها، ولو كانت لأحققر الحيوانات والحشرات".⁽⁴⁹⁾

وليس هذا فحسب بل انتقدت الهند على كثرة البقر وعبادتها من قبل الهندوس فهي تقول: "وأول ما يستدعي النظر في كراشني وفي غيرها من المدن الهندية. كثرة البقر في الطرقات، وما لها من سلطان على الحياة العامة، فصاحبة الجلالة البقرة الهندية تتمتع بتكريم وتبجيل وحرية لا تتوافر لخير أفراد الشعب. وذلك أن الهندوس يعبدونها، ويعتبرونها أم الله".⁽⁵⁰⁾

ه. الخروج كل ليلة إلى قبر فثم ابن العباس بن عبد المطلب:

بعد توديع ابن بطوطة للسلطان طر مشرين سافر إلى مدينة سمرقند قد أعجب ابن بطوطة بأهل سمرقند لأنهم كانوا أصحاب أخلاق كريمة ومحبيين للغريب وقد فضلهم على أهل بخاري، ومما لفت انتباهنا خروج أهل سمرقند كلا ليلة إلى قبر فثم بن العباس بن عبد المطلب وأهل سمرقند يندرون له النذور العظيمة يقول ابن بطوطة "ويخرج أهل سمرقند كل ليلة واثنين وجمعة إلى زيارته أو التتر يأتون لزيارته ويندرون له النذور العظيمة ويأتون إليه بالبقر

والغنم والدرهم والدنانير، فيصرف ذلك في النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك".⁽⁵¹⁾ وهذا يدل على اقرار أهل سمرقند بالجميل لفتاح سمرقند، أما النثر فهم مازالوا يعيشون أيام الجاهلية بكفرهم ولا يعون ماذا يفعلون بتقديمهم تلك النذور للقبر طالبا منهم أنهم يتبركون به.

ونجد هذه العادة سائدة في المجتمع الجزائري خلال فترة الاستعمار حيث كان المجتمع الجزائري متمسكا بالعديد من المعتقدات كزيارة الأضرحة والتبرك بكرامة الأولياء والخضوع لبعض المرابطين.

ط. عادات الزوايا بمصر:

"وتكون هذه العادة بجلوس كل شخص على سجادة خاصة به، ومع صلاة الفجر تقرأ سورة الفتح، سورة الملك وعمّ، ثم توزع على الفقراء بالزاوية نسخ من القرآن الكريم ويختم القرآن، ومن عاداتهم أيضا مجيئ القادم لباب الزاوية على كاهله سجادة وبيمينه العكاز وبيسراه الابريق، فإذا علم البواب بحضوره خرج إليه ويسأله عن البلاد التي جاء منها، والزوايا التي نزل بها ومن شيخها وإن كان صادقاً في قوله أدخله الزاوية وأحسن ضيافته فيتوضأ ويصلي ركعتين، ويقعد مع الشيخ"، وإن كان يوم الجمعة أخذ الخادم

جميع سجاجيد الزاوية ويفرشها في المسجد ويصلي كل واحد على سجادته وبعد الفراغ من الصلاة يتلون القرآن.

كل عادات الزوايا بمصر تحت على عبادة الله الواحد الأحد وتعظيم القرآن الكريم بالإضافة إلى تبيان محاسن الاسلام من حسن الضيافة والشفقة على الفقراء، ليبقى جميع المسلمين سواسية كأسنان المشط. (52)

"لقد تعود أهل مكة من كل يوم جمعة على لصق المنبر المبارك مع صفح الكعبة الشريفة، بحيث يكون الخطيب مستقبلاً المقام الكريم يلبس ثوباً أسوداً مع عمامة سوداء، مع طيلسان أسود، كل ذلك من كسوة الملك الناصر، فيقترب من المنبر ويقوم بتقبيل الحجر الأسود ويدعو عنده.

والمؤذن الزمزمي لابساً أيضاً السواد وعلى عاتقه السيف ممسكاً له بيده، فيصعد أول درج في المنبر ويقوم المؤذن السيف بتقليده، فيضرب بنصل السيف الدرج مسمعاً كل الحاضرين، بعدها يضرب الدرج الثاني ثم الثالث، فإذا استوى في عليا الدرجات ضرب ضربة بعدها يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، بعدها يرد عليه الناس بعدها يجلس ويؤذن المؤذنون في أعلى قبلة زمزم في حين واحد، يشرع الخطيب في خطبة يشرع فيها بكثرة

الصَّلَاة على النبي الكريم فيقوم: "صلّ على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف، ويشير بأصبعه إلى البيت الكريم، اللهم صلّ على محمد وآل محمد ما وقف بعرفة واقف، كما أنه يترضى عن الخلق الأربعة وعن سائر الصحابة وعن النبي صلى الله عليه وسلم بعدها يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول، ثم للسّيدين الشريفين الحسينيين أميرى مكة سيف الدين عطيفة، وهو أصغر الأخوين، بعد إتمام الخطبة والصَّلَاة يعاد المنبر إلى مكانه الكريم". (53)

إنها عادة كريمة يقوم فيها الخطيب كل يوم جمعة بتذكر رسول الله والصلاة عليه مع اجتماع المصلين جميعاً والتقيد بالخطبة الممتعة التي يلقيها الخطيب.

ي. عادة الجنائز:

اعتاد أهل دمشق عن وجود جنازة أنهم يمشون أمامها، مع قراءة القراءة للقراءات بأصوات عطرة وألحان حزينة مبكية، فإن كان ميتهم من أئمة الجامع أو من خدمه أدخلوه إلى موضع الصلاة عليه بالقراءة وإذا كان من عامة الشعب قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوه، وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن

بمقربة من باب البريد فيجلسون وبحوارهم ربعات القرآن يقرأون فيها برفع الأصوات والنداء لكل من يصل للعزاء من كبار أهل البلدة ويقولون بسم الله فلان..... وغير ذلك، وعند اتمامهم القراءة يقوم المؤذنون ويقولون، افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان ويمدحونه ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به لموضع الدفن". (54)

ومن خلال هذه العادة يتبين لنا أنّ أهل دمشق كرماء وذوو عطف مع الحي والميت، فجنّازتهم بهذه الطريقة توضح مدى حزنهم على الفقيد، رأى الرحالة أنّ هذه العادة عجيبة وغريبة كون أنّهم يقيمون جنازة كبيرة على الميت.

مراسيم الدفن والطقوس للموتى تختلف من شعب إلى شعب منذ خلقت البشرية، وقد قدم لنا الرحالة ابن فضلان يذكر كيفية دفن الموتى عند الروس والصقالبة، وهي عادة عجيبة حيث يدفن مع الميت خدمه وماشيته وتهياً له كل أسباب الراحة في قبره.

-
- 1 _ الشريف حبيلة ، بنيه الخطاب الروائي ، ص 244 .
 - 2 _ الشريف حبيلة ، بنيه الخطاب الروائي ، ص 234 .

- 3_ الحسن الورثلاني ، الرحلة الورثلانية ، ص 412 .
- 4 _ الرحلة الورثلانية ، ص 140.
- 5 _ المصدر نفسه ، ص 419 .
- 6 _ المصدر نفسه ، ص 115.
- 7 _ المصدر نفسه ، ص 313 .
- 8- ابن جزي، رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، ص366.
- 9 _ الشريف حبيلة ، بنيه الخطاب الروائي ، ص 204 .
- 10_ الحسن الورثلاني ، الرحلة الورثلانية ، ص 160 .
- 11 _ المصدر نفسه ، ص 539 .
- 12 _ الحسن الورثلاني ، الرحلة الورثلانية : الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ، ص 135.
- 13 _ المصدر نفسه ، ص 429 .
- 14_ المصدر الثاني ، ص 604 .
- 15 _ الحسن الورثلاني ، الرحلة الورثلانية ، ص 425 .
- 16 _ المصدر نفسه ، ص 406 .

- 17 _ المصدر نفسه ، ص 409 .
- 18_ قاده عقاق ، دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر ، دراسة في إشكالية (التلقي الجمالي للمكان) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، دط، 2000 م، ص 22.
- 19_ سيدي الحسن الورثلاني، الرحلة الورثلانية، ص 122.
- 20_ المصدر نفسه، ص 409.
- 21 _ المصدر نفسه، ص 165.
- 22_ المصدر نفسه، ص 183.
- 23_ المصدر نفسه، ص 165.
- 24 _ شاعر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، ص 51 .
- 25_ الحسن السابق، ص 108 .
- 26_ المصدر السابق، ص 156 .
- 27_ الحسن الورثلاني، الرحلة الورثلانية: الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ص 165.

- 28 _ المصدر نفسه، ص 419 .
- 29 _ المصدر نفسه، ص 421 .
- 30 _ الحسن الورثلاني، الرحلة الورثلانية، ص 182 .
- 31 _ الحسن الورثلاني، الرحلة الورثلانية: الموسومة بنزهة
الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ص 640 .
- 32 _ المصدر نفسه، ص 420 .
- 33 _ المصدر نفسه، ص 530 .
- 34- ابن بطوطة، الرحلة، ج1، ص261.
- 35- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص68.
- 36- المصدر السابق، ج2، ص434.
- 37- ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص207.
- 38- ينظر: المصدر السابق، ج1، ص206.
- 39- ينظر: المصدر السابق، ج1، ص386.
- 40- المصدر نفسه، ج1، ص588.
- 41- المصدر نفسه، ج2، ص589.
- 42- المصدر السابق، ج2، ص585.

- 43- المصدر نفسه، ج2، ص592.
- 44- المصدر السابق، ج2، ص587.
- 45- المصدر نفسه، ج1، ص230.
- 46- ينظر: المصدر السابق، ج1، ص214.
- 47- ينظر: المصدر السابق، ج1، ص68.
- 48- ابن جزي: رحلة ابن بطوطة تحفة النظّار في غرائب
الأمصار وعجائب الأسفار، ج2، ص447.
- 49- أورك زيب الأعظمي: مشاهدات في الهند "دراسة نقدية،
ص10.
- 50- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 51- المصدر السابق، ج1، ص384.
- 52 - أنظر: المصدر السابق، ج1، ص56 و 57.
- 53 - أنظر: المصدر السابق، ج1، ص174.
- 54 - أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص122.